سورية وطريق الهند

بقلم الاب لامنس اليسوعي

ان يرسخ في قلبنا اعتقاد ، منذ زهاء اربعين سنة ونحن ندرس تاريخ هذه البلاد ، فهو اعتقادنا خطورة مركزها الجغرافي ، واملنا بمستقبلها الباهر . وهذه العواطف قويت فينا لما جمعنا المواد لتأليف كتابنا «تاريخ سورية» المطبوع في العام ١٩٢١ ، فانعمنا النظر في مصيرها على تطورات الايام ، فرأيناها رابطة الجأش صابرة على النكبات . حمل الاعداء عليها فعاثوا فيها فسادًا ، ونزلت بها نوازل المجاعات والطاعون والزلزال ، فصرعتها لكنها لم تلبث ان نهضت وجددت شبابها كأن الزوابع تزيدها نشاطاً ، والكارثات تورثها حياةً . ولم يكن صبرها على الجور والاستبداد ايام حكامها الظالمين باقل منه بسالة على آفات الطاعون والمجاعة

وحسبنا ، في هذا الصدد ، ان نعود بالذكر الى عهد المماليك (١٢٩١-١٥١٦) والى ايام دولة بني عثمان ، وهي الاقرب زماناً منا والاشدّ ضرراً بنا . أتستطيع بلاد مقاساة ما قاسته سورية في تلك الايام ولا تنفى عن بكرة ابيها .

اناخ المماليك بكلكلهم على البلاد والعباد ، سحابة قرنين ، فسلبوا ونهبوا واستباحوا الدماء ، وهم عصبة شذّاذ مغامرين ، وارقاء ابناء ارقاء ، لان المملوك معناه العبد الرقيق ، دأبهم الفوضى والقتال ، فاقتتلوا واجهز بعضهم على بعض ، ولم يهتموا بامر السوريين الا فيما كان يعود عليهم بالارباح والمغانم . وان دولة المماليك انقرضت وباد اثرهم ، اما سورية فلم تتحوّل الى قفر ولم تمُت .

على انها بدلت حكاماً بحكام ، وخلف الباشاوات الاتراك المماليك ، في العام ١٥١٦ ، وحذوا حذوهم فحكموا واستبدوا وتركوا مقاليد الدولة لعبة بين ايدي الرشوة والطمع والفوضى ؛ وما كان دأبهم سوى تحصيل الاموال باسرع الوسائل واقرب الطرق . اما معدن الاموال لهم فهم السوريون .

كانت القسطنطينية اشبه منها بالسوق تُعرض فيها الوظائف للبيع ، فيتقاسمونها ويتصافقون عليها. وكانت وظيفة الباشا في حلب او في دمشق يبلغ ثمنها ما يوازي مليوناً من عملتنا اليوم ، ووظيفة الدفتردار نصف ذلك. ولم تكن تلك المبالغ بكَبيرة على اصحابها ، وهم يستعيضون عنها بمدة عام يقضونه في الولايات . فيعودون الى استانبول وقد وفوا ديونهم وزادوا ثروتهم اضعافاً . ثم يخلفهم غيرهم في تلك الوظائف فيقبضون على زمام الامر ويأكلون ويشبعون ولم يكن ذهب سورية يشبع جشع هؤلاء فقط بل كان يبلغ عن ايديهم قصر السلطان ومنهُ يوزع على سراريه ووزرائه .

طالت دولة الاتراك اربعة قرون واهرقت من الدماء ما اهرقت ثم انقرضت عقبَ الحرب العظمى وسورية لا تزال تتمتع بحياتها وعمرانها .

من اين لها هذه الحياة العجيبة ؟ أنّى لكنوزها ان تتجدَّد وتتوفَّر بعد السلب وبعد النهب ؟ كيف عادت المياه الى مجاريها وقد حاول المماليك والاتراك استنزافها من مناهلها ؟ ألعلَّ الفضل في ذلك عائد الى تربة البلاد وخصبها ؟ نعم لقد نظر اليها البدوي ابن الصحراء معجباً بغناها وسماها « ارضَ الخمر والخمير والديباج والحرير »(١) ولكن خصبها اشبه منه بالفرسة الضئيلة بالنسبة الى الشجرة ، اذا ما قابلته بخصب مصر « وتربتها الغبراء ونهرها الميمون الغدوات، المبارك الروحات »(٢)

ولم تكن معادنها اساساً لثروتها لان ما تحتويه طبقاتها الارضية من الدفائن لا يزال امره مبهماً غامضاً .

ان موارد ثروتها الحقيقية، والسلاح التي تقاومه لتقهر نكبات الدهر، انما هو موقعها الجغرافي ، فهو خير معتمد تتكل عليه لتنظر الى مستقبلها الاقتصادي بعين الثقة والارتياح .

* * *

لا تلقي نظرك على خارطة آسية الغربية ، ايها القارئ اللبيب ، حتى تبدو

١) (اغاني ١٦ : ١٥٦)

٢) عمرو بن العاص في كتابه الى عمر بن الخطاب

لك بقعة هيئتها هيئة المربع المستطيل الممدود بين البحر المتوسط والبادية ، وموقعها على مفارق الطرق بين اقطار العالم القديم اعني اوربة وآسية وافريقية . تلك هي البلاد السورية وهي تحلّ في العالم التمدن محلّ النقطة المركزية من الدائرة،لان حضارة مصر واليونان وبابل احاطت بها واثرت فيها ، وروتها من ينابيع خيراتها . فلا عجب اذن ان قال فيها السير رنه بينون : « ان سورية في العالم البشري كالنقطة الحيوية من الانسان.» وهي كاداة الوصل للعالم القديم لانها تربط آسية بافريقية.وهي وجه المشرق الوضاح يغتسل بمياه البحر المتوسط ويتنسم من طيات موجه نسمات الغرب البليلة

هذه هي بلادنا . وليست هي بشرقية محضة ، وليست بغربية محضة . انما هي جسر يصل جزيرة العرب الماحلة الجدبة وصحراءها بارياف النيل الغنية واودية الفرات المخصبة بل هي ارض الحركة والماطاة التجارية والمعاملات الاقتصادية . وما ان نتصفح الكتاب المقدس حتى نتحقق انها كانت منذ القدم ارض المرور التاريخية.

في سورية مر ابراهيم ابو الشعب العبراني والعربي بعد خروجه من اور الكلدانيين . وبسورية اجتاز التجار الاسماعيليون ، فقطعوا بطونها وحزونها ، وابتاعوا يوسف من اخوته وسافروا به الى مصر . والى سورية أمّ الملوك من اوفير وسبأ ، اسياد البلاد الغنية بالذهب ، وارباب الأيالات الشهيرة بالعطور والبدّ والطيب . ومن سورية اشرق عليهم نور فاجتذبهم اليها.وبفضل روحاتهم وجيئاتهم اصبحت سورية سوقاً يتبادل فيه البشر محصولات الخافقين . تلك المواكب الملوكية والركب الفخمة لا يزال ذكرها حيًا في ما روتهُ التوراة ، واليك بعض شذراتها : « وكان وزن الذهب الذي ورد على سليمان في سنة واحدة ست مئة وستة وستين قنطار ذهب غير الوارد من المكاسين وتجار الجلب وجميع ملوك العرب وولاة الارض الذين كانوا يأتون سليمان بالذهب والفضة (١ ايام : ٩ ؛ ١٣،١٤) وقال حزقيال ان اغنياء التجار كانوا يفدون الى صور من بلاد سبأ واليونان وما بين النهرين ويتزاحمون في اسواقها.(حز ؛ ٢٨)

* * *

اما في يومنا فما من مؤرخ يستطيع ان يضع موضع الريبة تأثير طريق الهند التجارية في تطور التاريخ وفي حياة الشعوب الاقتصادية . وان الاستيلاء على تلك الطريق المؤدية الى الغرب بمحصولات الشرق انما هو دأب الدول المعروفة بجرأتها ونشاطها .

هكذا كان الامر على ايام الدول البابلية والمصرية والحثية، وهكذا لا يزال الى يومنا على هذه البلاد الفريدة في نوعها تقاتلت البشرية بالامس ولا يزال قتالها متواصلاً الى اليوم . وهو ثارة محصور في دائرة السفارات والمداورين ، وثارة منتشر تحت لواء الحروب الهائلة . رجال الحكم ورجال التجارة يطمحون الى اسواق الهند كأن برقاً خلباً ذهب ببصائرهم . وكلما توفرت وسائل النقل واقتربت المسافات بفضل الاختراعات الحديثة ، تبارى أولو الامر وتسابقوا في الوصول الى مأربهم . وما اشدهم كدّاً في الجد اليه ، وسعياً الى التمتع به وحدهم . فلا يزاحمهم عليه مزاحم . وكان من اثار ذلك الاجتهاد فتح ترعة السويس ومدّ الخط الحديدي البغدادي . حتى قال بعضهم ولم يغالوا : ان المسألة الشرقية هي في حقيقتها مسألة الهند . ولخص الالمان القضية كلها بهذه الكلمات (Drang nach Osten) اي « الزحفة على الشرق » . ولم تكن الزحفة في الحقيقة الّا على طريق الهند ، وليست هي من اقل العوامل التي اضرمت نيران الحرب الكونية سنة ١٩١٤ .

في العهد القديم ، وفي القرون الوسطى، كانت المعادن الثمينة والابزار التي اشتهرت بها الهند هدفاً للمطامع ومدعاةً للمشاكسات . وقد نشبت ، في اواخر القرون الوسطى ، حرب فريدة في نوعها دعيت « حرب البهار » . اما اليوم فليس القتال على البهار والقرفة والقطن فحسب ، بل هو ايضاً على البترول ولا غنى عنه للصناعة العصرية (١

فلا عجب ان يدور دولاب التاريخ ويجدّد في الزمان الحاضر حوادث العهد الغابر ، لان الاحتياجات ذاتها الناتجة عن المطامع ذاتها هي التي تحوّل الطرق

(١ راجع الفصل الاول من كتابنا : «La Mecque à la veille de l'Hégire»

التجارية العظمى الى طرق لحركة الجيوش والتحام المارك.

وان المر السوري هو الاقرب مسافةً والاقل نفقةً للتنقل بين الهند واوربا وهو بريّ وبحريٌّ معاً. لان مياه شط العجم كانت في سالف الزمان قاتجه من مصب النهرين الكبيرين (دجلة والفرات) الى قلب البر كأن وادي الفرات ترعة اخترقتها الطبيعة صلة بين البحر المتوسط وخليج فارس. وكان التجار يركبون السفن ويجتازون عليها المياه من الشرق الى ان يبلغوا منبج وجرابلس، وهم على قاب قوسين او يكادون، من الاسكندرونة، حيث مياه البحر تختلج الاراضي السورية، وحيث كوع الفرات يتجه نحو البحر المتوسط كانه يلتمس له مصباً فيه ليقرب بين الشرق والغرب.

وان الطريق من الهند الى اوربة عن مجرى الفرات هي اسرع من غيرها واوفر وآمن، ولا سبيل الى الريبة في الامر. وحسبنا شاهداً على صدق كلامنا ما رواه التاريخ عن وفرة عدد المارّين عليها على مدى الزمان، فضلاً عن وجود المدن الكبرى على جانبيها، واثارها الى يومنا تنطق ببناها، وقد كانت حياتها على المياه ومن المياه. تلك المياه المحيية قد قيّض لها في يومنا ان تغور في الصحراء. فلا حياة على مجاريها ولا عمران

كيف انقلب خصبها القديم الى صحراء عقيم ؟ ذلك لانّ المنازعات السياسية والحروب والاضطرابات حالت دون حركة الاسفار التاريخية، فترك المسافرون طريق الفرات الى غيرها، محوّلين سيرهم عن البادية نحو الجنوب، وكانوا اينما توجهوا فتحوا باباً للتجارة والعمران

وقد يخطر على بالنا، ونحن نذكرهم، تاريخ تدمر ونشأتها المدهشة وعزها الشامخ. فانها برهان على ذكاء الاعراب وحزمهم، لانهم قدروا قيمة الصحراء واستغلوا موقعها الجغرافي، اذ حطوا رحالهم فيها وابتنوا مدينتهم بين الفرات والثغور السورية. وما يقال عن تدمر يطلق ايضاً على بترا (عاصمة النبطيين) وعلى غيرها من المدن التي ازدهرت في اودية العاصي والفرات، ولا تزال انقاضها تنطق بسالف عمرانها. فما احرانا بالاسف عليها وبندب ايام حولت ميدان الثروة والمدنية قاعاً صفصفاً

قال العلامة رينه دوسو في مؤلفه المعنون « اماكن سورية التاريخية » : « ما ان يقطع المسافر تلك المسالك المقفرة حتى يمتاص عليه امرها . ولا يصدق ما يروى عن عمرانها السالف الا اذا احيا صورتها في مخيلته ، وتذكر تارة الشرق وفارس والهند ، وطوراً الغرب . فلا يلبث ان يفهم ان طريق الصحراء كانت مطروقة معبدة للقوافل وحركة التجارة » (١ هذه هي اسباب النجاح في الماضي

* * *

فينتج مما تقدم ان ليس بين الطرق المؤدية من اوربة الى الهند طريق اسهل مسلكاً من سورية ، فمن الواجب ان نعتني به اعتناءنا باحد مرافقنا الحيوية ، فنبذل الجهد لتجهيزه بما يحتاج اليه التنقل العصري ، لان نجاحه متعلق بسائر العوامل المؤثرة في الحركة التجارية البرية ؛ وغنى البلاد منوط امره ليس بالدولة وحسن ادارتها فقط ولكن برواج حركة النقل ايضاً ، والمحافظة على طريق الهند . ومن الشاهد على ذلك ان اكتشاف رأس الرجاء الصالح كان له تأثيره السيء في امهات المدن السورية القديمة اعني بها انطاكية وبيدية واللاذقية وغيرها من المرافئ

على شاطئ الفرات السوري نشأت سلسلة مدن قديمة ، هي شاهد على حركة التجارة على النهر ، أنقاضها تنعيها اليوم واكثرها لا يُعرف منها الا اسمها نهتدي به تدريجاً الى الاطلاع على انحطاط تلك الطرق التجارية . وكان كلما ابطأت حركة المسافرين كسدت سوق التجارة وجمدت حركة المواصلات في سورية

تقلص ظل الدولة الرومانية في البلاد السورية ، فاخذت مصابيح مدنها الفراتية تنطفئ واحداً واحداً . ثم ظهرت الدولة العباسية فرغبت عن سورية في العراق ، ولم تكترث لمصالحها وتجارتها فانقطع سير السفن على الفرات واصبحت اراضيه قفراً يُغير فيه البدو على القوافل فينهبونها

لم ننه تحرير هذه الاسطر الا وقع نظرنا على النشرة الافرنسية الاسبوعية

(١ راجع R. Dussaud : Topographie historique de la Syrie p. 249

(جورنال دي ديبا في ١٢ كانون الثاني ١٩٢٨) فقرأنا فيها ما يلي « إيلنا والنسيان ان مركز سورية الحربي هو مفتاح من مفاتيح طرق المواصلات العالمية في المستقبل . كلما عمدنا الى السفر والنقل ابتغينا فيه السرعة ومن وسائل هذه السرعة الطيارات والسيارات والخطوط الحديدية . وان موقع سورية في ملتقى الطرق الجوية والبرية الدولية . وباديتها المفتوحة للمواصلات على ايام الرومان قد اوشكت ان تستعيد سالف اهميتها » . ونوّه صاحب المقال بما يُنسب الى ايطالية من المطامح فقال : « من قبض على زمام السير في سورية كانت في يده مقاليد الاتصال بين الشرق الاقصى والغرب وبين آسية واوربة »

* * *

فيحق اذًا للسوريين ان يلقوا الذ الاماني على مستقبل وطنهم الاقتصادي . لكنه لا بد لهم من التفطن الى ان العناية الالهية لا تبتذل العجائب ابتذالًا ولا تخلص من الغرق من يترك دفة سفينته للوبة الموج والرياح . لقد قام جيراننا يزاحموننا على طريق الهند (وحسبنا ذكر فلسطين) لعلهم يحولونها اليهم ، وهم يعللون النفس بالظفر لما يبذلونه من العناية في سبيل تنظيم السفر وشدّ حبل الامن ليستميضوا بذلك عما تفوقهم به سورية من قرب المسالك

فعلى السوريين ان يتقوا تلك الخاطر وقد بينت الاضطرابات الحديثة انها ليست اضغاث احلام . ان الجغرافية محالفة لهم فليحالفوها . ولتكن سورية الطريق الدولية المؤدّية الى الهند ، المفضّلة على سواها ، ليس فقط لقربها ، ولكن لنظامها وسرعتها ووفرة اسباب الراحة والامن فيها . ولا بد ان يهتمّ اولياء الامر آجلًا او عاجلًا بشأن الملاحة على الفرات

وان ما عرضنا امره للقراء هو برنامج واسع . انما هو عنوان النهضة الاقتصادية وتجديد حركة المواصلات . ولا يدخل في حيّز الفعل الا بالتضحيات المالية . اما المال المبذول في سبيل تحقيقه فهو اثر من مآثر الفطنة ، وزرع يأتي حصاده باحسن المحصولات